شريش من خلال أديبها أبي إسحاق البونسي الشّريشيّ (ت 1253/651)

د. حياة قارة

كلّية الآداب - الرّباط - المغرب

لقد حظيت شريش بعناية خاصّة من المرابطين ثمّ الموحدين على وجه الخصوص، وقد انعكس هذا الاهتمام في جلّ المظاهر الحضاريّة الّتي أصبحت تتمتّع بها المدينة : ثقافة، وعمرانا، ومظاهر اجتماعيّة متميّزة. ولا شكّ في ذلك، فهي كما قال عنها ابن سعيد « في نهاية من الحضارة والنّضارة» [1]. ولعلّ هذه الشهادة تقرّبنا من مضمون علاقة الحضارة بالعمران بالمفهوم الخلدونيّ، وتكون العلوم نتيجة لذلك، إنّما تكثر حيث يكثر العمران، وتعظم الحضارة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ شر يش، بما تتميّز به من عمران، وصفه الجغرافيّون والرّحالون، وأكّده ابن سعيد بقوله « وهي في نهاية العمارة » [2] من المراكز الحضاريّة الهامّة الّتي كانت تشدّ إليها الرّحال، قصد التّعلّم والتّفقّه بعلمائها وشيوخها، بل أصبحت في العصر الموحّديّ مركزا ثقافيّا هامّا، نفقت بها أسواق العلوم، وزخرت بحارها، ونشطت فيها الحركة العلميّة نشاطا واسعا، ظهرت آثاره، وبرزت معالمه في أصناف شتّى من العلوم : الأدب، واللّغة، والقراءات، والتّصوّف، والطّب. وقد ساعدها على هذا الإشعاع العلمي والحضاريّ، قربها من مدينة إشبيليّة، إذ هي بنتها، وواديها ابن واديها، كما يقول المقرّي نقلا عن الحجاري، ولأهلها همم وظرف في اللّباس، وإظهار الرّفاهيّة، وتخلّق بالآداب. [3]

ولعلّ من أهمّ مظاهر هذا الإشعاع، احتضان شريش للمقامات الحريريّة ؛ إذ تعدّ مركزا هامّا لدراسة هذه المقامات، بل يمكن القول إنّ فضل انتشارها في الأندلس

---

(1) انظر النّفح: 205/1.

(2) المغرب : 302/1.

(3) نفح الطّيب : 184/1.

والمغرب، يرجع إلى رواتها وشراحها من علماء شريش [4] . وقد امتدّ هذا الإشعاع إلى الشّعر الذي عبّر من خلاله شعراء شريش عن طبيعة المدينة، ومنتزهاتها، ومتفرّجاتها، واشتهر فيها شعراء مجيدون، أمثال ابن شَكِيل الصّدفي الشّريشيّ [5]، أحد شعرائها الفحول – فيما يقول ابن الأبار [6] –وهو من شعراء الدّولة الموحّديّة الّذي تشهد له أشعاره بالنّبل والاستطراف، وقد استطاع أن يتفرّد ويتميّز به عن معاصريه. ومن شعرائها كذلك ابن لبّال الشريشيّ [7] الذي كان يقرض مقطّعات من الشعر ، فيما يقول ابن عبد الملك، ويجيد فيها ، وبينه وبين جماعة من أدباء عصره مخاطبات أدبية نظما ونثرا تدلّ على متانة أدبه [8].ومن شعرائها المطبوعين [9] أبو عمرو بن غياث الشريشي؛ ويتميّز شعره بالأصالة والفنّيّة العالية [10]. إلاّ أنّنا إذا كنّا نجد لبعض العواصم والحواضر الأندلسيّة صدى في الدراسات الأندلسيّة الحديثة، من حيث

---

(4) انظر ابن لبال الشريشي للدكتور محمّد بن شريفة، ص 24.

(5) قمت بجمع شعره وصنع ديوان له، صدر تحت عنوان : أبو العبّاس أحمد بن شكيل الأندلسي : شاعر شريش. تقديم وتحقيق : حياة قارّة–السّلسلة الأندلسيّة (1)–منشورات المجمع الثّقافيّ–أبو ظبي –الإمارات العربيّة المتّحدة – ط -1. 1988.

(6) تحفة القادم: ص 140.

(7) صدر للدّكتور محمّد بن شريفة دراسة شاملة لأدب ابن لبال تحت عنوان < إبن لبال الشريشي 508 - 582 هـ / 1114 -1187) دار النّجاح الجديدة – الدّار البيضاء – ط 1 -1996.

وقد أفاد الدّكتور كثيرا من مخطوط كتاب < كنز الكتّاب ومنتخب الآداب > لأبي إسحاق البونسي الذي كنت أعرته إياه، في صنع ترجمة ابن لبال وتقويم شخصيّته مرّ ة أخرى، على ضوء المادّة الجديدة الوفيرة التي يكنزها كنز الكتّاب، كما وجد طائفة أخرى غزيرة من أشعاره، منها هذه المخاطبات التي أشار إليها ابن عبد الملك، والتي أخلّ بها عمله الأوّل «أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة».

(8) الذيل والتكملة : 1/5 / ص 170.

(9) انظر تحفة القادم : ص 181.

(10) يحتجن كتاب (كنز الكتّاب) الكثير من شعر ابن غياث ونثره.

إشعاعها الفكري والحضاري؛ فإن شريش لم تحظ بهذه العناية، على الرّغم من دورها الرّيادي في العصر الوسيط، بل إن الدراسات التي أنجزت في هذا الباب نزرة يسيرة تعدّ على رؤوس أصابع اليد الواحدة. ولعلّ هذه المحاولة التي أقدمها اليوم، إضافة جديدة من الإضافات التي تسهم في الكشف عن جديد الأندلس. ومن ثمّ، فإنّني أودّ في هذا البحث التّعريف بشخصيّة شريشيّة هامّة في تاريخ الغرب الإسلامي يكاد الدارسون لا يعرفون عنها شيئا؛ أعني بذلك أبا إسحاق إبراهيم البونسي الشريشي الذي استطاع أن يكشف عن ميزة الإبداع الأندلسي، والشريشي منه خاصّة، و تخليد مآثره، من خلال تآليفه اللّغويّة والأدبيّة، ومن ثمّ كانت شخصيّة جديرة بالاهتمام والعناية؛ لأن في الاهتمام بها وسيلة لمعرفة المناخ الفكري العامّ للقرن 13/7، ووسيلة إلى رصد موقع شريش في خريطة الإبداع الأدبي بالأندلس، ولا سيما أن المؤلف سعى إلى ذلك، وخوّل لنا في مؤلّفه الضخم « كنز الكتّاب ومنتخب الآداب [11] معرفة أعلام شريشيّة اشتهرت في فنون وعلوم مختلفة؛ منها من نكتشف إبداعاتهم الفنّيّة لأوّل مرّة، ومنها من أضافت إليهم هذه الموسوعة الأدبيّة رصيدا جديدا في الإنتاج والإبداع، يضاف إلى رصيدهم السّابق الذي عرف عنهم. ومن ثمّ، فإنّ الكتاب يحتجن مادّة أدبيّة أندلسيّة ضخمة ومتنوّعة، تشير في مجموعها إلى امتلاك البونسي لأهمّ الأدوات التي تعدّ عمدة وقاعدة لهذا النّوع من التّأليف الذي يجمع بين مجالات معرفيّة متعدّدة، وأجناس أدبيّة مختلفة؛ يتمثّل في الحسّ الإبداعي، والتّنوّع المعرفي لدى المؤلّف الذي غذّته الثقافة الأصيلة، والتّكوين الرصين، فكان سببا لهذا الاختيار الواعي، في مناخ يبدو في الظاهر مساعدا على هذا الاختيار. وقد أثبت بحثي في كتب التراجم والطبقات أن صاحبنا هذا ترجم له أبو العباس بن فُرتُون في « الذّيل على الصلة » ومُصلح كتابه، ومكمّله أبو جعفر بن الزبير في السّفر الأوّل من كتابه المسمّى «صلة الصلة». كما

(11) انظر مقالنا : نبذة من شعر أبي عبد اللّه محمّد بن غالب الرّصافي البلنسي، مجلّة دراسات أندلسيّة، عدد 21 – جانفي 1999 ص ص23 - 24.

ذكره ابن عبد الملك المرّاكشي في السّفر الثّاني من كتابه«الذّيل والتّكملة» في من اسمه أو رسمه (إبراهيم)، ولم تصل إلينا هذه الأسفار التي فيها ترجمة صاحبنا، وهو مترجم له فقط في التّكملة لابن الأبار. وتكاد تجمع المصادر (12) التي ترجمت له، على أن اسمه هو: إبراهيم بن علي بن أحمد ابن علي الفهري (13)، من أهل شريش (14)، يكنّى أبا إسحاق، ويعرف بالبونسي نسبة إلى قرية بُونس بالباء العجمية (15). ولمّا فحصت هذه التّرجمة في نسخ التّكملة الخطيّة، وجدت مادّة (بونس) قد ضبطت مرات

---

(12) انظر ترجمته في : التّكملة – مخطوط – بالخزانة العامّة – الرّباط – رقم 4135 د (غير مرقّم) وك 358 ص141- 142، و214 ك، ص ص243 - 244، والخزانة الحسنيّة–الرّباط–رقم1411. والتّكملة 172/1 (ط. عزّت العطار) وص: 223 (ط. الأبياري 1989) وتحقيق د.عبد السّلام الهراس146/1 رقم 454) وأعلام المغرب العربي : 101/1 -102، ومعجم المؤلّفين 63/1، والأعلام : 45/1، بروكلمان 163/6، ودائرة المعارف الإسلاميّة (الطبعة الفرنسيّة) الطبعة الأولى ج1 ص 106، والطبعة الثّانية ج1 ص 906، وتراث الأندلس : تكشيف وتقويم 106/1، إعداد جماعة من الأستاذة بإشراف د. محمّد حجّي، مؤسّسة الملك عبد العزيز آل سعود للدّراسات الإسلاميّة والعلوم الإنسانيّة – الدّار البيضاء 1993.

(13) فهر : قبيلة من قريش تنسب إلى فهر بن مالك بن النّضر بن كنانة. انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ص 11 - 12.

(14) شريش JEREZ de la frontera تقع شمال قادس على مقربة من البحر : الرّوض المعطار : 340 وهي (من مدن الأندلس المليحة ظاهرا وباطنا ... ومن متفرّجاتها الجانة) : المغرب : 302/1. وعن شريش أيضا انظر المحاورة الطّريفة التي جرت بين أبي عبد اللّه بن زرقون وأبي بكر بن العربي التي كادت أن تكون مقامة شريشيّة، ورواها الشريشيّ في شرحه لمقامات الحريريّ : 123/3 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم – بيروت – 1992. وتعدّ شريش من أقاليم كورة شُذُونة . وقد ضبطها ابن الشّباط التّوزري ضبط عبارة فقال : شُذُونة بضم الشّين المعجمة وضم الذال المعجمة أيضا وبعدها واو ونون وهاء تأنيث : انظر وصف الأندلس لابن الشباط ص141 تحقيق أحمد مختار العبّاديّ صحيفة معهد الدّراسات الإسلاميّة – مدريد – المجلّد 14 – 1967 - 1968.

(15) انظر التّكملة (المخطوط والمطبوع) سبق ذكرها . وفي مخطوط الخزانة الحسنيّة ص 59 : البونسيّ نسبة إلى بونس، وكتب فوقها كلمة « صح ».

متعدّدة، تارة بضمّ الباء وكسر النّون، وتارة أخرى بضمّ الباء وسكون النّون [16]. وقد ضبطها الزبيدي ضبط عبارة أخرى، فقال: « بونس بالضمّ وفتح النّون قرية من أعمال شريش» [17]. كما ضبطها ابن الأحمر ضبطا آخر فقال:« قال الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن علي الفهري البيونسي بالياء المثناة من أسفل، الشريشي، في كنز الكتّاب ومنتخب الألباب تأليفه: أمّا الكتابة فهي تلو الخلافة في القدر، وقريبة منها في الخطر، وهي أجلّ ما يطلب، وأشرف ما فيه يرغب، وأحسن ما عمل، وأفضل ما انتحل، وقد وصف اللّه سبحانه بها ملائكته المقرّبين، فقال وهو أصدق القائلين «(وإنّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ)»وقوله تعالى:«(عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)»هو الكتابة...»[18]، ولا ندري مصدر ابن الأحمر في ذلك، فهل تكون«البيونسي»نسبة إلى قرية «بيونس»؟ فنحن الآن أمام نسبتين، الأولى: البونسي، والثانية: البيونسي. أمّا (بونس) فهي قرية قديمة، وقاعدة بناها الرّومان، وقد خرّبت [19]، ولا نجد ذكرا لمادّة (بونس) في البيبليوغرافيات الخاصّة بالأعلام الجغرافية والتّاريخيّة الأندلسيّة باللّغتين الإسبانية والعربيّة، وقد تكون (برنس BORNOS) كما ذهب إلى ذلك معظم المستعربين الإسبان المحدثين [20] ، لسهولة الخلط بين الرّاء والواو في الخطّ الأندلسي، حيث نجد

---

(16) المصادر السابقة الذكر.

(17) تاج العروس مادّة (بنس) : 113/4.

(18) كتابة « العمدة واستنزال الفرج بعد الشدّة في شرح قصيدة البردة » تأليف أبي إسماعيل بن يوسف ابن محمّد بن فرج بن إسماعيل بن يوسف الشّهير بابن الأحمر. مخطوط بزاوية سيدي حمزة (الزّاوية الحمزاويّة) إقليم الرّاشديّة . ص ص123 - 124.

(19) انظر: Dicctionario - GEOGRAFICO - Estadistico - Historico de ESPANA- Por: PASCUAL MARDOZ , Tomo IV , P : 413, MADRID, 1849-
GRAN ENCICLOPEDIA de ANDALUCIA. TOMO II, P: 507- 508

(20) أشكر الأساتذة الفضلاء د. ماري إيزابيل فييرو، والدكتور خواكنلْفي DR. JOAQUINALVE اللّذين أمداني بمعلومات مفيدة وهامّة عن مادّة (بونس أو برنس) بينما يرى د. محمود علي مكي أثناء لقائي به بفاس على هامش تكريم أبي القاسم الشّابي بتاريخ 12 - 10 - 1994 أنّها بُلّنسَه POLLENSA بالباء المعجمة ، وهي قرية من قرى جزيرة ميورقة، في حين يذهب الزركلي في الأعلام : 45/1 إلى أن (بونس) تسمّى بالإسبانيّة BONANZA. ولا أدري مصدرهما في ذلك.

في صلة الصلة لابن الزّبير أثناء ترجمته لأبي الحسن علي بن هشام الشريشي، يقول:« حدّث عنه الأستاذ أبو إسحاق البرنسي من أهل بلده»(21). فقد تصحّفت كلمة (البونسي) إلى (البرنسي) ومن ثمّ فإن (التّونسي) خطأ من الأخطاء الموجودة في الذّيل والتّكملة (22) أيضا. وتقع (برنس BORNOS) على بعد 97 كلم من مدينة قادس، عاصمة إقليم قادس (23) حاليا، وتوجد على بعد 43 كلم من مدينة شريش، وقرية برنس السالفة الذكر تقع على بعد 13 كلم من مدينة أركش (24). ويذهب فراي بيدرو ماريسكال مؤلّف تاريخ برنس ونواحيها، إلى أنّ أصل البرنس من السّودان الوسطى(25).

ولعلّ نسبة البونسي أو البيونسي إلى (برنس) لها نصيب من التّرجيح اعتمادا على ما جاء من تعريف دقيق لمادّة (برنس) في المعاجم الإسبانيّة، في حين لم نجد ذكرا لمادّة (بونس) في جلّ المعاجم التي تمكنّا من الاطلاع عليها: العربيّة منها والأجنبيّة.

واعتمادا كذلك على ما ورد في كتاب (صلة الصلة) لابن الزبير (26)؛ إذ لا شكّ أنّ روايته في ذلك، كانت عن طريق شيخه ابن فرتون الفاسي صاحب (الذّيل على الصلة)، وهذا الأخير تتلمذ على أبي إسحاق البونسي، وقرأ عليه، وأخذ عنه، وترجم له في كتابه الذّيل، بدليل ما ورد في التّكملة لابن الأبار، إذ اعتمد على التّأريخ الذي أرخ به ابن فرتون ميلاد البونسي ووفاته، بل لا يبعد أن يكون ابن الأبار قد اعتمد في

---

(21) صلة الصلة : 133/4 (تحقيق د. عبد السّلام الهراس)، ص 127 (تحقيق ليفي بروفنسال).

(22) الذّيل والتّكملة س 6 ص 295، وس 5ق 1 ص 418 هامش رقم 3 .

(23) قادس CADIS : جزيرة بالأندلس عند مالقة من إشبيليّة. انظر تفصيل ذلك في الرّوض المعطار : 448.

(24) ARCOS DE la Frontera: حصن بالأندلس على وادي لكّه. مدينة أزليّة قد خربت مرارا وعمّرت. وفيها زيتون كثير: الرّوض المعطار: 27 -28.

(25) GRAN ENCICLOPEDIA de ANDALUCIA Tomo II P: 507- 508

(26) صلة الصلة : 133/4 (تحقيق د. عبد السّلام الهراس). وص 127 (تحقيق ليفي بروفنسال).

ترجمته للبونسي، على ما جاء في (الذّيل)، وإن لم يكن نقلها عنه، فقد استأنس بها. قال ابن الأبار:« وتوفي منتصف سنة إحدى وخمسين وستّمائة، وقال ابن فرتون: إنه توفي في العشر الأواخر من ربيع الآخر من السنة» (27)

وقال أيضا:« قال:(28) ومولده في عام ثلاثة وسبعين وخمسمائة، فيما كتب لي بخطّه» (29). وعن تاريخ الميلاد أيضا، قال البلفيقي « مولده في ذي القعدة» (30)، من التّاريخ المذكور. ووهم الزّبيدي حين جعل وفاته سنة 658 هـ (31).

اعتمادا على ما تقدّم، وكذلك على مسيرة البونسي العلميّة، والشّيوخ الذين تفقّه بهم، أرجح أن يكون قد ولد بقرية بونس مسقط رأسه، ونشأ وتلقى تعليمه بشريش إلى أن توفي بها. يبدو إذن أن شحّ المعطيات وفقرها، سواء تعلق الأمر بكتابات البونسي نفسها أو بكتب الرّجال والطبقات والتّراجم، أوببعض النّصوص التي اهتمّت بالتّأريخ للمرحلة التي عاش فيها متأدبنا بغرب الأندلس، حالت دون وضع ترجمة كاملة أو متكاملة للرّجل، لأنّنا نعلم بأنّها الطّريق الأوثق للوقوف عن قرب على العوامل والأسباب البعيدة والعميقة التي أسهمت في تشكيل الوعي المعرفي لديه، وحملته في النهاية على أن يكون هو ماهو. ولكن على الرّغم من ذلك، سنحاول أن نقوم بقراءة تركيبيّة، معتمدين في ذلك على قراءات كثيرة في كتب التّراجم والطبقات والتّاريخ والبرامج والرحلات، و مستعينين كثيرا بالإشارات القليلة الواردة في كنز الكتّاب المتعلّقة بالمؤلّف نفسه. فهناك إشارة في (كنز الكتّاب) مفادها أن البونسي كان«غلاما يافعا» وعمره إذّاك عشر سنوات، لما توفي أستاذه ابن لبال الشريشي؛ له اتصال برجال العلم، وولع بالأدب؛ نظمه ونثره، يقول:«شهدت جنازته-رحمة اللّه عليه

---

(27) انظر المصدر السّابق الخاصّ بالتّكملة : مخطوط ومطبوع.

(28) المصدر نفسه، والضمير هنا يعود على ابن فرتون.

(29) المصدر نفسه.

(30) انظر حاشية النسخة الخطيّة من التّكملة : ك 358 -الخزانة العامّة - ص ص 141 -142.

(31) تاج العروس : مادة (بنس).

وبركاته-في اليوم الثّالث، وهو يوم الثّلاثاء من شهر ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وأنا يومئذ غلام يافع، بين يدي أستاذي خاضع متواضع، مولع بالأدب وجماله، ومقتبس أنوار العلم من رجاله:

أقول لسائل عنّي ملحٌّ طلاب العلم ريحاني وراحي

فخرجت من المدينة بعد صلاة العصر، وهي قد ألقت من فيها من أهلها وساكنيها، واجتمع قاصيها إلى دانيها، والنّاس بين باك ملء عينيه، ومسترجع عاضّ على يديه، وصلّي عليه، ثمّ دفن الحلم والورع معه في قبره، وتعطل جيد الزمان من نظمه ونثره» [32]. ثمّ إن الدّيباجة التي قدّم بها المؤلّف لكتابه، تسعفنا أيضا فيما نحن بصدده، بأخبار من حياته، بإشارات وجيزة، ولكنّها على جانب كبير من الأهمّية، فهي وإن كانت خالية من الحديث الصريح عن حياته؛ إلاّ أنّها تتضمّن وصفا رائعا لحالة البونسي النفسيّة، وهو مقدم على تدوين كتابه، وقد ألمّ خلالها بالظّروف التي شاهدها وعاشها. يقول في ذلك « على أنّي ما ألّفته إلاّ بذماء نفس تالفة، وحال متغيّرة كاسفة، وقلب عليل، وذهن كليل، وصدر بنيران الخطوب مشغول، وفكر بحسام النّوائب مفلول» [33]

ومن الإفادات الهامّة كذلك التي تفيدنا بها خطبة الكتاب، قناعة المؤلّف وعصاميّته وحرصه على العلم، قال : «على أنّي لم أرض بالشّعر بضاعة، ولا اتّخذت الاستجداء به حرفة ولا صناعة، علما بأنّ مرتبته تقصر عن غايات أهل الفضل، و تنقصر عن درجات ذوي النّبل؛ بل صنت وجهي عن البذل، ولم أعرض خدّي بالتّخدّم للذّلّ، ورضيت بالقناعة مالا وافيا، وبإقراء كتاب اللّه سبحانه وتعالى شغلا كافيا» [34].

---

(32) كنز الكتّاب ومنتخب الآداب: 656/2 . مرقون وهو الآن قيد الطّبع.

(33) كنز الكتّاب : 7/1.

(34) المصدر نفسه : 7/1.

والملاحظ في هذا الباب، أن البونسي لم يضمن كتابه، من شعره، ما يكفي لجعل الكتاب مصدرا لتتبع شاعريّته تتبّعا دقيقا؛ إذ كلّ ما ورد من شعره لم يتعد بضعة أبيات، مهّد لها بقوله :« ومن قولي فيه، من قصيدة في التّغزّل»

كم ليلة بتّها حرّان مكترثا ... رهنَ الأسى وظلامُ الليّلِ مُعتكِرُ
ما بَين ضدّين من نارٍ مؤجّجةٍ ... ودمعُ عَيْنِي بماء الشّوْقِ يَنْهَمِرُ
مَا بَيْنَ خَدّيْن لا واللّه ما اجْتَمَعَا ... إلاّ لأمْرٍ كُبارٍ لَيْسَ يُحْتَقَرُ
حتّى رَأَيْتُ كُمَيتَ اللّيْلِ مُنْهَزِمًا ... وَأَشْهَبَ الصُّبْحِ قَدْ وَافَى به السّحرُ(35).

إلاّ أنّنا، و إن كنّا لانقف في « كنز الكتّاب» على شعرآخر له، فإنّ ما ورد في خطبة الكتاب، كاف للدّلالة على شاعريّته الأصيلة التي اجتمعت فيها الموهبة والاكتساب من المحفوظ الغزير، والسّماع الكثير لعيون الشعر العربي، يقول: «إن نظمت الكلام أحكمته، وإن نثرته شفّفْتُهُ وَقَوّمْتَهُ.

إن لَمْ أَكُنْ فَارِسَ الهَيْجَاءِ مِنْ هَوَجِ ... فإنّني فارسُ القِرْطاس و القَلَم
ولي لِسَانٍ يَظَلّ الدُّرّ مُقْتَسِمًا ... مَا بَين مُنْتَثِرٍ منه ومنتظم» (36).

يتبيّن ممّا تقدم أن عفّة البونسي وأنفته دفعاه لكي يوقّر نفسه وقارها، ويعرف لها مقدارها، ويصون وجهه عن الابتذال، ويقنع بما يسّره اللّه له من إقراء كتاب اللّه سبحانه وتعالى شغلا كافيا، ولم يكن ثمّة وجه لسؤاله بالشّعر. ولا شكّ في أنّ مداومة النّظر في كتاب اللّه العزيز، جعل من البونسي عالما تتعدّد معارفه، ويصفو سماعه، ويرقى حسّه إلى درجة سامية من النّبل والعفّة والطهارة. ومن الإشارات المفيدة أيضا الواردة في ثنايا « كنز الكتّاب» التي تساعدنا في تقريب صورة البونسي، اهتمامه بالقضايا الفقهيّة والأصوليّة؛ حيث كان لتضلّعه في اللّغة، وعلمه بأسرارها، وقدرته

(35) كنز الكتّاب : 429/2.

(36) المصدر نفسه.

على إدراك وجوه الدّلالة في ألفاظها، أثر كبير في نظراته الفقهيّة والأصوليّة، ويحتجن الكتاب قضايا فقهيّة متعدّدة أبانت عن أثر القدرة اللّغويّة في فكره الفقهي والأصولي.

1-2 ثقافته وشيوخه:

لقد تلقّى أبو إسحاق البونسي علوم الأدب، واللّغة، والحديث، والقراءات على مجموعة كبيرة من علماء عصره في بلده شريش، وفيما يلي قائمة هجائيّة بأسماء هؤلاء الشّيوخ :

1- **أبو الحسن علي بن هشام بن حجّاج بن الصّعب** اللّخمي الشّريشي (37) : ذكر ذلك في كنز الكتّاب ج12/1، 31، والتّكملة خ.ع رقم 4135 د (غير مرقم) وك358 ص 141، 142 وك 214 ص 243 -244 وخ.س رقم 1411. ص59 و(ط. الأبياري) ص223، و(تح د. عبد السلام الهراس) 146/1، و(ط. عزّت العطّار) 172/1، وصلة الصّلة ق 4 ص 133، والذّيل والتّكملة: س 5 ق 1 ص 418، و أعلام المغرب العربي: 101/1 -102.

2- **أبو عمرو محمّد بن عبد اللّه بن غيّاث الجذامي الشريشي** (38) :

ذكر ذلك في كنز الكتّاب: 160/1، 181،357، 362، والمصدر السّابق الخاصّ بالتّكملة (مخطوط ومطبوع)، وأعلام المغرب العربي: 101/1 -102 . ويقول أبو إسحاق البونسي

---

(37) في حاشية التّكملة خ.ع رقم 358 ص 141 طرّة فيها « هو الشّيخ الفقيه المجوّد الحاج أبو الحسن علي بن هشام بن عمر بن حجّاج اللّخمي تلا القرآن عليه بالسبع وغيره، من خطّ البلفيقي» وقد وقف ابن عبد الملك المرّاكشي على نسبه بخطّه في غير موضع، وليس فيه ذكر لعمر، وفيه بعد حجّاج « ابن المصعب». ومن البعيد أن يذكر الجد الأبعد، ويترك الأقرب. انظر الذّيل والتّكملة : س 5 ق 1 ص 416. انظر ترجمته في: التّكملة 728/2 رقم 2065 (ط. مجريط) وبرنامج شيوخ الرّعيني: ص 24، وصلة الصّلة 133/4، والذّيل والتّكملة س 5 ق 1: ص 416 -419.

(38) انظر ترجمته في: تحفة القادم ص 181 -183، وبرنامج شيوخ الرّعيني ص 99-101 والمغرب: 305/1-306 والذّيل والتّكملة: س 6 ص 295 -296 ونفح الطّيب: 608/2.

الذي عرف ابن غيّاث، وسمع منه بشريش«قريع دهرنا وأديب عصرنا، الوزير الأجل أبو عمرو محمّد بن عبد اللّه بن غيّاث شيخنا» [39].

3- أبو العبّاس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن القيسي الشريشي [40]. ذكر ذلك في التّكملة (المخطوط منه والمطبوع) وأعلام المغرب العربي: 101/1 -102.

واللافت للنّظر هنا، أن البونسي لم يشر إطلاقا، في كتابه كنز الكتّاب، أوْ لِنَقُلْ في هذا السّفر الذي وصلنا من الكتاب حتّى نكون منصفين، إلى أستاذه شارح المقامات الأكبر الذي كان يقرئ العربيّة والآداب بشريش، وله تآليف كثيرة في الأدب واللّغة والنّحو، ولا شكّ في أن البونسي قرأ عليه مقامات الحريري تفقّها، وشرْح أستاذه عليها توسّعا، ثمّ إنّه كان ينقل عن شرحه الكبير للمقامات نصوصا كثيرة ولا يشير إلى ذلك، ولا يصرح باسم المؤلّف أيضا.

هذا كلّ ما أمكننا الوصول إليه عن دراسة الرّجل وشيوخه. على أنّ ثقافة البونسي لم تقف عند هذا القدر المحدود من الشيوخ، فكتابه، بما اشتمل عليه من اختيارات عديدة، واستشهادات كثيرة، يشهد أنّه رجع إلى أصول مشرقيّة وأندلسيّة متعدّدة ومتنوّعة.وقد أشار هو نفسه في خطبة الكتاب، إلى أنّه عمد إلى كتاب « الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسّام، فألف من جواهره المتفرّقة، وقطف من أزاهره المونقة [41] وتصفح كذلك كتاب « قلائد العقيان في محاسن الأدباء والأعيان» للفتح ابن خاقان ، واغترف من درره السّنيّة، وغرره البهيّة ما استحسن إثباته في كتابه هذا[42]. والجدير بالإشارة إليه هنا، أن كتاب كنز الكتاب يحتفظ بالعنوان الأصلي

---

(39) كنز الكتّاب: 181/1.

(40) انظر ترجمته في التّكملة ص 148 (ط. الأبياري) وبرنامج شيوخ الرّعيني ص 90 - 91 ، والذّيل التّكملة : 268/1 - 269، ونفح الطّيب 115/2 - 116.

(41) كنز الكتاب : 5/1.

(42) المصدر نفسه.

لكتاب القلائد، إذ لاشكّ أن البونسي كان يملك نسخة منه تحمل العنوان الأصلي له، مع العلم أن الكتاب اشتهر في كتب التراجم والفهارس والنّسخ الخطيّة باسم « قلائد العقبان ومحاسن الأعيان [43].

2-2 تلاميذه :

لم تذكر لنا المصادر إلاّ عددا قليلا من أسماء تلاميذه، ومن أشهر من حدّث عنه:

1 - **أبو العبّاس أحمد بن يوسف بن أحمد بن يوسف** بن إبراهيم بن أحمد بن خلف بن الحسن بن الوليد بن فرتون السّلمي الفاسي [44]: ذكر ذلك في التّكملة «المخطوط منه والمطبوع». وذكر ابن فرتون في كتابه المفقود (الذّيل على الصّلة) أنّه أجازله ولابنه عبد الكريم.

2- **عبد الكريم بن أحمد بن يوسف بن أحمد بن يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن خلف بن الحسن بن الوليد بن فرتون السلمي الفاسي [45]: ذكر ذلك في التّكملة (المخطوط منه والمطبوع).**

3- **محمّد بن إبراهيم بن يربوع الكلبي السبتي**[46]. توفي سنة 694 هـ: ذكر ذلك في درة الحجال لابن القاضي (261/2) وفيها «أخذ عن أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن أحمد الفهري الشريشي».

3- أصحابه وأقرانه :

---

(43) انظر مقدّمة كتاب قلائد العقبان بتحقيق الشيخ محمّد الطّاهر بن عاشور الدّار التّونسيّة للنّشر- 1990.

(44) انظر ترجمته : في صلة الصلة 349/5، وجذوة الاقتباس : 117/1 - 118، ونيل الابتهاج ص 79، ومقال الأستاذ محمّد الفاسي « أبو العبّاس بن فرتون » مجلّة (رسالة المغرب) شوال 1371 يوليه 1952 – ص 12 - 17.

(45) لم أقف على ترجمته.

(46) ترجمته في درّة الحجّال: 261/2 رقم 750.

ذكر البونسي في كتابه كنز الكتّاب أسماء عدد من العلماء الذين عاصرهم، وكان على صلة بهم، ولعلّ أشهرهم:

1- أبو الحسن بن الفخّار: علي بن إبراهيم بن علي بن عبد الرّحمان بن الحسن الأمويّ الشريشي الأركشي المتوفى سنة 642 هـ: ذكر ذلك في كنز الكتّاب: 162/1، وقال البونسي :« ومن إنشاء بعض أهل العصر، وهو بلديّنا الفقيه الحافظ أبو الحسن علي بن إبراهيم بن الفخّار».

2- أبو بكر بن أخْيَل الرّندي < كان حيّا سنة 580 هـ>. ذكر ذلك في كنز الكتّاب 166/1، وقال البونسي:« ومن إنشاء الكاتب أبي بكر بن أخيل من أهل عصرنا».

3- أبو الحسن بن لُبَّالَ: عليّ بن أحمد بن عليّ بن فتح بن لبّال الأموي الشريشي المتوفى سنة 583هـ: ذكر ذلك في كنز الكتّاب 650/2، وفيه « وسلك هذا المعنى المتقدّم بلديّنا القاضي أبو الحسن بن لبّال».

4- أبو الرّبيع سليمان بن موسى الكلاعي البلنسي المتوفى سنة 634هـ : ذكر ذلك في كنز الكتّاب 347/1، وفيه « وقال الفقيه الوزير أبو الرّبيع سليمان بن موسى الكلاعي البلنسي من أهل عصرنا».

5- أبو بكروأبو عبد اللّه محمّد بن عبد اللّه بن حباشة الأزدي الشريشي (لا تعرف وفاته): ذكر ذلك في كنز الكتّاب 656/2.

6- أبو الحسين محمّد بن أحمد بن جبير الكناني المتوفى سنة 614 هـ : ذكر ذلك في كنز الكتّاب 119/1 .

7- أبو العبّاس أحمد بن يعيش بن علي بن شكيل الصّدفي الشريشي المتوفى سنة 605 هـ : ذكر ذلك في كنز الكتّاب 99/1، 189 -199، 315 -319، 327 -332، 341 -344، 347.

4 -مؤلّفاته :

ونحاول فيما يلي إحصاء تآليف أبي إسحاق البونسي بعد أن جمعناها من المصادر والمراجع المختلفة، ورتّبناها ترتيبا هجائيّا:

أ- التّبيين والتنقيح لما ورد من الغريب في كتاب الفصيح : ذكر ذلك في التّكملة (المخطوط منه والمطبوع) وأعلام المغرب العربي: 101/1 -102، وتراث الأندلس تكشيف وتقويم 106/1، ومعجم المؤلّفين: 63/1، والأعلام: 45/1.

وممّا شدّ انتباهي في كنز الكتّاب، إغفال البونسي لهذا الكتاب، وكذلك إغفاله فصيح ثعلب في المواطن التي تلزم حضورهما؛ أعني المباحث اللّغويّة التي كان يركز فيها البونسي على الفصيح في اللّغة، والغريب فيها كذلك، مع العلم أنّ فصيح ثعلب من الكتب المشرقيّة التي كان يتفقه بها الأندلسيون، ويتعلّمون، ولذلك تعقبوها بالشرح والتّعليق والمعارضة.و لعلّ في هذا الإغفال إشارة إلى أنّ تاريخ تأليف البونسي لكتابه « التّبيين والتّنقيح» لاحق على تاريخ تأليف كتابه « كنز الكتّاب».

ب- التّعريف والإعلام في رجال ابن هشام :

ذكر ذلك في التّكملة(المخطوط منه والمطبوع)،وأعلام المغرب العربي: 101/1-102 و فيه «... برجال». ويسمّيه ابن عبد الملك المرّاكشي في الذّيل والتّكملة [47]:«برنامج شيوخ ابن هشام» يقول: ومن شيوخه الذين شملهم « البرنامج»:

* بالأندلس:

1- أبو بكر محمّد بن أحمد بن طاهر الأنصاري المعروف بالخِدَبّ.

2- أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن عبد اللّه بن أحمد الأنصاري البلنسي الأندرشي المعروف بابن اليتيم.

3- أبو القاسم بن بشكوال.

* بشريش :

4- أبو بكر محمّد بن مالك بن يوسف بن مالك الفهري.

5- أبو بكر محمّد بن أحمد بن عبيد السّكسكي.

* بسبتة :

---

(47) س 5 ق 1 ص 418.

6- أبو محمّد بن عبيد اللّه.

* بمكّة المكرّمة:

7- ضياء الدّين أبو أحمد عبد الوهاب بن علي بن علي البغدادي الصّوفي ابن سكينة.

8- أبو علي عمر بن إبراهيم.

9- أبو محمّد عبد الرّحمان بن إسماعيل بن أبي سعد النّيسابوري الصّوفي.

* بمصر :

10- أبو يحيى أليسع بن أبي الأصبع عيسى بن حزم بن عبد اللّه بن أليسع الجياني.

* بالإسكندرية:

11- أبو الطاهر إسماعيل بن مكّي بن عوف.

12-أبو الفوارس نجا بن تغلب اليكي.

13- أبو الطّاهر السلفي.

14- أبو عبد اللّه محمّد بن أبي محمّد عبد اللّه بن محمّد بن حباسة الأزدي الشريشي.

15- أبو علي حسن بن محمّد بن الحسن بن الرّسل.

16- أبو محمّد عبد المجيد بن أبي الحسن شدّاد بن المقدم بن عبد العزيز بن عبد الصّمد التّميمي.

17- أبو المنصور مضافر بن سوار بن هبة بن علي اللّخمي.

18- أبو القاسم بن مخلوف بن علي بن جارة.

19- عبد الرّحمان بن سلامة بن يوسف بن علي.

* ببجاية:

20- أبو محمّد عبد الحقّ بن الخرّاط الأزدي الإشبيلي.

* لا يعرف مكان لقائه به:

21- أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الخير مسعود بن سعيد بن محمّد الأنصاري.

هؤلاء هم شيوخ أبي الحسن علي بن هشام الشريشي الذين أخذ عنهم أو لقيهم، وقد اعتنى بجمعهم و فهرستهم تلميذه أبو إسحاق البونسي في «برنامج» سمّاه « التّعريف

والإعلام في رجال ابن هشام» ولم يصل إلينا هذا الكتاب. لكن هذا البرنامج لم يتضمن تراجم كلّ من أخذ عنهم ابن هشام، ونقرأ في التّرجمة له في الذّيل والتّكملة [48] :« وذكر ابن الأبار[49] في شيوخه بمكّة - شرّفها اللّه- أبا الحسن المكناسي، وأبا حفص الميانجي، وأبا محمّد المبارك بن الطبّاخ، وبالإسكندريّة أبا عبد اللّه الحضرمي». وما ذكره ابن الأبار عن شيوخ ابن هشام بمكّة والإسكندريّة، ممّا لم يضمنه البونسي كتابه (التّعريف). يقول ابن عبد الملك المرّاكشي الذي كان يملك نسخة من برنامجه منتقدا كلام ابن الأبار : «ولم يذكر (البونسي) فيه واحدا من هؤلاء الأربعة، وكذلك وقفت على إجازات شيوخه له بخطوطهم، فلم ألف لهم فيها ذكرا البتّة. فاللّه أعلم»[50].

ومن تعقيبات ابن عبد الملك كذلك على ابن الأبار، فيما يخصّ شيوخ ابن هشام، قوله:«ومن شيوخه الإسكندريّين، ولا أتحقّق الآن كيفيّة أخذه عنهم، الأخوان: أبو الطّاهر إسماعيل، وأبو محمّد عبد اللّه الدّيباجيان، وأبو الحرم مكّي بن أبي الطّاهر بن عوف، وأبو عبد اللّه الكركنتي، وتلا بالسّبع عليه، قاله ابن الأبار، وأراه واهما في ذلك، واللّه أعلم» [51]. وهذه التّعقيبات أو الانتقادات التي نعت ابن عبد الملك بها ابن الأبار مستعملا فيها ألفاظ الوهم والاستدراك « لم تكن صادرة عن طبيعة مولعة بنشر المعايب والمآخذ كما ذهب إلى ذلك بعض معاصريه، وإنّما هي انتقادات علميّة، قصد فيها إلى تصحيح الأخطاء، وتصويب الأغلاط، وصدرت عن نزوع قوي إلى الضبط والتّدقيق، وولوع شديد بالتّنقيح والتّحقيق» [52].

ج- كنز الكتّاب ومنتخب الآداب[53].

---

(48) س 5 ق 1 ص 418.

(49) لم يرد هذا في التّرجمة له في التّكملة (ط. مجريط) 728/2 رقم 2065.

(50) الذيل والتّكملة س 5 ق 418/1.

(51) المصدر نفسه س5 ق 417/1.

(52) الذّيل والتّكملة س 8 ق 1/ 93.

(53) تحقيق ودراسة: د. حياة قارّة . والكتاب الآن قيد الطبع.